

- ٦٢ -

هنا نتساءل : ما هي مصادر هذا الرجل ؟ ، وهل كانت جميعها مما يندرج
- بشكل أو بآخر - تحت تعبير أو نوع أو بند « المصادر المخطوطة » على عادة
الكثرة من أهل زمانه من الباحثين وواضح أنها هنا « المصادر المنسوخة » ،
لأن الطباعة لم تكن قد عرفت بعد ، وإنما كانت الرسالة تنسخ أو تخط بأعداد
كبيرة في دكاكين الوراقين والناسخين وبدور العلم والمكتبات وبعض الدواوين .

وفي تعبير آخر ، هل كان « الجاحظ » يتجه في جمعه لمادة كتبه ورسائله
وتصنيفاته المختلفة الى جانب أرفف دكاكين الوراقين ، وأضابير الدواوين ،
وخزائن المكتبات يجمع من بين صفحاتها شتات مادته ، ويللمم البعث من هنا
وهنا ، ينقل معلومة من مخطوطة هنا ، وسطورا من مخطوطة هناك ، ورأيا
من رسالة في مكان مهمل وشذرات من مترجمة من المترجمات ، وحاشية من
كتاب فارسي ، وأخرى من اضبارة هندية . . هل كان يفعل ذلك كله ، ثم يوحد
بين هذا الشتات البعث ، ويقرب بينه وبين غيره ويقوم بدراسته وتحليله
واستخلاص النتائج عنه ، ثم تقديمها في صورة جديدة تماما ، هي من تأليفه
هذه المرة ، يحمل بصمات فكره ، وطابعه الخاص شكلا ومضمونا ، لغة
وأسلوبا ؟ هل كان هذا هو ما يفعله الجاحظ فقط ، أم انه كان يلجأ الى غير
هذه من الطرق ، حتى وان اتبعها غيره ، أو كثرة من أهل زمانه ، وأهل
زماننا أيضا ؟

إن الواقع يقول ، أن هذه كانت طريقته أحيانا ، ولكنها لم تكن طريقته
الوحيدة ، أو طريقته الأساسية ، وإنما كان اعتماده على طرق أخرى كثيرة ،
أو على مصادر أخرى ليست مخطوطة فقط ، أو منسوخة فقط ، وإنما
مسموعة ، ويشرية أيضا ، قبل أن نتحدث عنها تفصيلا ، نقوم بالقاء سؤال
آخر ، ذلك السؤال هو : هل كان ما كتبه الجاحظ كله تأليفا من بنات أفكاره ،
حتى وأن كانت تسبقها خطوات البحث العادية في بطون الكتب ، أم كان بعضه
« جمعا » أو « تجميعا » من مصادر أخرى ، خاصة المصادر البشرية ؟

إننا - كمدخل لتتأجي فقط - نقول أن « صاحبنا » كما كان مؤلفا
« ماهرا » فقد كان على نفس الدرجة من المهارة « جامعا » و « متلقيا » و
« مستمعا » وكذا « مسجلا » أمينا وديققا وموهوبا . .

ومرة أخرى نعود الى مقرر الخبر ومصادره ، أو الى « مصادر